شقاوة الألفاظ وسعادتها

الأستاذ شفيق جبري

أرجع إلى أيام الصبا ، أيام المدرسة ، أذكر أن الطلاب كلهم كانوا يجلسون في قاعة عامة يهيئون مايفرض عليهم ، وكان رئيس المدرسة ينظر إليهم من نوافذ القاعة ، وهو يتجول في الممشى ، بعضهم كان يكتب ، وبعضهم كان يقرأ ، وبعضهم كان يلهو بمعجم « لاروس » وتصاويره ، فكان الرئيس يدوّن في خاطره مايعنّ له من الآراء في مراقبة الطلاب ثم يأتي في يوم من أيام الأسبوع ويلقي علينا في ربع ساعة نتائج مراقبته وأكثرها نصائح ، من جملة ماقاله مرة : إني رأيت بعض الطلاب يفتحون معجم « لاروس » ويطيلون النظر فيه ، فإذا كان همهم اللهو بالتصاوير ، ففي ذلك ضياع الوقت ، وإذا كان همهم النظر في مفردات اللغة والتدقيق في معانيها ففي ذلك فائدة كبيرة .

من ذلك الوقت نشأ لي ميل إلى مطالعة معجم من معجمات اللغة من حين إلى آخر ، ثم اشتد بي هذا الميل لما قرأت مقالاً « لأناتول فرانس » في محتويات المعجمات ، وأظن أني قد أشرت إلى هذه المحتويات في مواطن كثيرة ، وهل عليّ من حرج إن لخّصت بعض هذه المحتويات في سطر واحد : إن معجمات اللغة فيها كل شيء ، فيها أفراحنا وآلامنا وآمالنا ، وفيها أفراح آبائنا وآلامهم وآمالهم . ليس هذا كل ماجاء في مقال « أناتول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرانس » وقد قرأت لكاتب آخر مقالاً خص فيه محتويات المعجمات في كلمة فقال : إن فيها تاريخ الأمة كلها .

إن كلام هذين الكاتبين واضح لايحتاج إلى تفسير ، فإن المفردات التي يشتمل عليها المعجم تصور لنا أخلاق الأمة ، وفلسفتها وعلمها وأدبها وفنونها ، فكل لفظة تدل على شيء يتعلق بناحية من نواحي الأمة ، لأن الألفاظ لاتوضع إلا للدلالة على الأشياء ، فقد نستطيع أن نعرف مابلغت إليه الأمة من الحضارة من مفردات المعجمات ، فالأمة التي تفقد شيئاً من كل ما تقدمت الإشارة إليه لانجد في معجمات لغتها اللفظ الدالّ على هذا الشيء ، وقد نقل الجاحظ في كتاب البخلاء حديثاًلطاهر الأسير الذي قال : ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم أنك لاتجد للجود في لغتهم اسماً ، وإنما سمّى الناس مايحتاجون إلى استعماله .

فإذا كنت مولعاً بمطالعة معجمات اللغة من وقت إلى آخر فبعض هذا الولع ناشيء عما أظفر به في هذه المطالعة من معرفة مايتصل بشعور الأمة وذوقها ، بعلمها وأدبها ، بفلسفتها وأخلاقها ، بكل أفق من آفاقها .

إلا أن معجمات اللغة تدلنا على أشياء ثانية غير التي ذكرتها ، فقد خطرت ببالي في أثناء مروري ببعض ألفاظ اللغة خواطر يسيرة أحببت الإلماح إليها ، من هذه الخواطر شقاوة الألفاظ وسعادتها ، وهذا عنوان يبدو في صدر الأمر غريباً ، كيف تشقى الألفاظ وكيف تسعد ، ولكن لاغرابة في ذلك ، فإذا كانت اللغة كائناً حياً يجري عليها ما يجري على الأحياء فلماذا لاتشقى ولا تسعد ، فقد يكون أحد الناس غنياً في زمن من الأزمان ثم يصير إلى الفقر ، أو قد يكون فقيراً ثم يصير إلى الغنى ، وقد نجد في اللغة مثل ذلك ، ولعل ضرب الأمثال أشفى ، فمن الألفاظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي كانت شقية في زمنها ثم سعدت في زمننا هذا لفظة : الفنان ، ماذا نجد في اللغة ؟ نجد أن الفنان هو الحمار الوحشي له فنون في العدو .. ولسنا ندري متى ولدت هذه اللفظة لأنّا لانملك معجماً يدوّن تاريخ الألفاظ ، ولكن الذي نعلمه أن هذه اللفظة عاشت أحقاباً طويلة في لغتنا ولكنها عاشت في شقاوة ، فمن الذي كان يرضى أن يطلق عليه اسم الفنان ، أي الحمار الوحشي ، إنّ في هذا الإطلاق غاية التحقير ، أما في عصرنا فقد ذهبت عن لفظة الفنان شقاوتها وكتبت لها السعادة ، فلم يعد الفنان في عصرنا الحمار الوحشي له فنون في العدو ، ولكن الفنان في هذا اليوم صاحب غناء وتصوير ونحت فالفنانون جماعة معظّمون ، مكرّمون ، يكرمهم الناس وتكرمهم الحكومات وبعضهم يقلدون الأوسمة الرفيعة اعترافاً بعلوّ منزلتهم في فنهم ، فلا يتذمم أحد منهم من أن يقال له إنه فنان ، إنه يرى في هذا القول غاية التكريم . أفرأينا كيف أن هذه اللفظة شقيت في عصور طويلة ثم سعدت في عصرنا ، أفلا يحق لنا أن نؤمن بشقاوة الألفاظ وسعادتها .

وعلى العكس فإنا نجد أن بعض الألفاظ كانت سعيدة في أيامها ثم شقيت بعض الشيء في هذا الزمن ، من هذه الألفاظ : الجرثومة ، نجد في اللغة أن جرثومة الشيء أصله ، وقد يكون هذا الأصل شريفاً وقد يكون غير شريف ، فيقال : جرثومة الخير كما يقال جرثومة الشر ، إلا أنها غلب عليها في الماضي معنى الشرف ، ولم يغلب عليها في اللغة نفسها وإنما غلب عليها في الاستعمال ، فقد جاءت في بعض الشعر القديم على ما أذكر وإن كان لا يحضرني الآن هذا الشعر ، كما أنها جاءت في بعض النثر ، وفي كل المواطن كانت تدل على شيء من أصل العز والشرف ، أما اليوم فقد انحدرت عن منزلتها الرفيعة ، وإذا استثنينا علم الجراثيم في الطب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقلنا في فلان إنه جرثومة فقد أردنا بقولنا إنه أصل كل أذى وفساد وشر ، وما أظن أن أحداً من الناس يسره أن يقولوا فيه إنه جرثومة ، فإذا كانت لفظة الفنان قد سعدت في عصرنا فإن لفظة الجرثومة قد شقيت بعض الشقاوة ، ولا ندري كم تدوم سعادة الأولى ، وكم تدوم شقاوة الثانية ، فإن اللغة لا تثبت على وجه من الوجوه .

وإذا لم تكن لفظة الجرثومة تدل على الشرف في أصل معناها اللغوي وإنما جاءها هذا الشرف من استعمال بعض الشعراء والكتّاب لها في القديم وضاع شرفها في الحديث ، فإن لفظة « العِلْق » كريمة في أصل اللغة ، فالعلق بالكسر إنما هو النفيس من كل شيء ، ولكن ماذا بقي من هذه النفاسة يومنا هذا ، ولا سيما في لغة العامة ، فإن العامة إذا قالت في فلان إنه علق فقد أرادت بهذا القول أسوأ الإهانة ، فالعلق في لغتها مجرد من كل شيء يتصل بالرجولة ، فهو كالمخنّث ، فما في إطلاق هذه اللفظة على رجل من الناس شيء من المدح ، وإنما فيه كل الذمّ . وهكذا نجد أن هذه اللفظة كتبت لها الشقاوة بعد تقلّبها في السعادة عصوراً مديدة .

وما تمرّ به بعض الألفاظ من الشقاوة والسعادة في عصورها تمرّ به بعض المصادر أيضاً ، وأعني بقولي هذا أن الفعل قد يكون له كثير من المصادر ، ولكن قد يغلب على هذه المصادر مصدر واحد أو مصدران فيشيع استعمال الغالب ويهمل المغلوب ، فقد مررت عرضاً في خلال مطالعتي للقاموس المحيط بمادة : كال ، يقال : كال الطعام كيلًا ومَكيلًا ومَكالاً ، أفلا نرى أن مصدر الكيل غلب على أخويه : المكيل والمكال ، فشاع استعماله في لغتنا حتى كاد المصدران الآخران يختفيان ، ولا أعني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقولي أنها غير صالحين ، وإنما أعني به أن استعمال الكيل غلب عليها .

فالذي يستنبط من كل ما تقدم أن مثل اللغة كمثل الأحياء في عالم الطبيعة ، فقد يجري عليها ما يجري على هذه الأحياء من مختلف القوانين مثل قانون تنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعي ، وبقاء الأصلح و « التطور »، وهي اللفظة التي ولّدها عصرنا .

« شفيق جبري »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net